الفصل الأول

الرسائل المشفرة

في البداية كانت الرسائل نادرة ومهذبة.

منذ أوائل التسعينيات، بدأت أجهزة الرصد الفلكية تلتقط إشارات غريبة قادمة من اتجاه كوكب المشتري. لم تكن ضوضاء كونية عشوائية. كانت منتظمة، تحمل أنماطًا تتكرر، ثم تتغير ببطء كأنها تحاول أن تقول شيئًا. استغرق الأمر سنوات قبل أن يتمكن علماء الشفرة من فك الرموز الأولى.

كانت الرسائل الأولى بسيطة: إحداثيات، معادلات، أسئلة عن تركيب الغلاف الجوي للأرض. رد العلماء بحذر، مستخدمين الشيفرة نفسها. ومع مرور الوقت نشأ حوار بطيء ومتقطع عبر مئات الملايين من الكيلومترات.

ثم تغيرت النبرة.

حوالي عام 2003 بدأت الرسائل تحمل شيئًا جديدًا: تعاليًا خفيًا. ثم تهديدًا مكتومًا. كانت تتحدث عن «الكائنات البدائية التي تسكن الكوكب الأزرق الصغير»، وعن «ضرورة ترتيب الأمور في النظام الشمسي». عندما سأل العلماء عن طبيعة الحياة على المشتري، جاء الرد مقتضبًا وباردًا:

«لا شأن لكم بذلك.»

عندما سألوا عن نواياهم، جاء الجواب أشد قسوة:

«سنقرر نحن ما يجب فعله.»

في السادس من سبتمبر عام 2013، اجتمع كبار علماء الفلك والفيزياء والشفرة في قاعة المؤتمر الدولي للفضاء. كانت الشاشات تعرض آخر الرسائل المترجمة. الصمت كان ثقيلاً.

قال أحد كبار العلماء، وهو يشير إلى الشاشة:

«منذ عشر سنوات ونحن نحاول فهم ما يدبرونه. لم يعودوا يردون على أسئلتنا الجوهرية. وأسلوبهم أصبح... استعلائيًا بشكل خطر.»

همس عالم آخر:

«هل يعتقدون أنهم يستطيعون الوصول إلينا؟ الغلاف الغازي للمشتري كثيف جدًا، والجاذبية...»

قاطعه صوت هادئ من الصف الأول:

«الجاذبية ليست المشكلة الوحيدة. إذا امتلكوا القدرة على اختراق غلافهم والخروج منه، فالأرض لن تكون آمنة.»

بعد ساعات من النقاش، استقر الرأي على قرار واحد:

بناء سفينة فضاء تمولها كل الدول القادرة، وإرسال بعثة استكشافية إلى المشتري.

لكن العقبة كانت واضحة للجميع منذ اللحظة الأولى:

لا يمكن لأي إنسان أن يهبط هناك ويعود حيًا.

الجاذبية مرتين ونصف جاذبية الأرض.
أعاصير من الميثان والنشادر تتحرك بآلاف الكيلومترات في الساعة.
إشعاعات ومجالات كهرومغناطيسية قادرة على قتل أي كائن بيولوجي في دقائق.

في نهاية الجلسة، وقف رئيس المؤتمر وقال الجملة التي ستغير كل شيء:

«إذن... لن نرسل بشرًا.
سنصنع من يذهب بدلًا عنا.»

وفي مكان ما في مختبرات مغلقة بعيدًا عن القاعة، بدأت الرسوم الأولى لثلاثة كائنات معدنية تأخذ شكلها على الشاشات.

ثلاثة أسماء لم تكن قد نُطقت بعد:

مارد... جبار... صقر.

الفصل الثاني

المستحيل البشري

بعد قرار المؤتمر، بدأت الاجتماعات المغلقة.

في غرفة صغيرة بلا نوافذ، جلس فريق من كبار الفيزيائيين والمهندسين والأطباء حول طاولة مستديرة. على الحائط كانت تُعرض صور ومحاكاة لكوكب المشتري: البقعة الحمراء الكبرى تدور ببطء، والغيوم البرتقالية والبيضاء تتحرك كأنها كائنات حية هائلة.

قال الدكتور كمال، خبير الجاذبية، وهو يشير إلى الأرقام على الشاشة:

«الجاذبية على سطح المشتري تعادل مرتين ونصف جاذبية الأرض. أي رائد فضاء يهبط هناك سيشعر كأن وزنه أصبح مئتين وخمسين كيلوغرامًا فجأة. عضلاته لن تتحمل. عظامه قد تنكسر تحت وطأة وزنه وحده. والقلب... القلب سيفشل في ضخ الدم إلى الدماغ خلال دقائق.»

أضاف مهندس الغلاف الجوي:

«ثم هناك الغازات. الميثان والنشادر والهيدروجين بكثافات قاتلة. أي تسرب بسيط في البدلة الفضائية يعني الموت اختناقًا أو تسممًا في ثوانٍ. والأعاصير... سرعات تصل إلى أكثر من ستمائة كيلومتر في الساعة بشكل دائم. لا توجد عاصفة على الأرض تقارن بها.»

صمت الجميع لحظة. ثم تكلمت الدكتورة ليلى، أخصائية الإشعاعات:

«ولا ننسى الحزام الإشعاعي. المشتري يمتلك أقوى مجال مغناطيسي في النظام الشمسي بعد الشمس نفسها. الإشعاعات هناك قادرة على قتل إنسان محمي بأفضل الدروع في أقل من ساعة. حتى الروبوتات العادية ستتأثر... لكننا نستطيع تصميم دروع خاصة لها.»

في الزاوية كان يجلس ممثل عن الحكومات المشاركة، رجل أنيق يضع نظارة رفيعة. قال بصوت هادئ لكنه حاد:

«إذن أنتم تقولون إن إرسال بشر انتحار مؤكد؟»

«نعم»، أجابت ليلى دون تردد. «انتحار جماعي.»

«والرأي العام؟» سأل الرجل. «الناس يريدون أبطالًا. يريدون وجوهًا بشرية على الشاشات، لا آلات.»

د. كمال رد ببرود:

«الناس يريدون أيضًا أن يبقوا أحياء. إذا أرسلنا رواد فضاء وماتوا على الهواء مباشرة، سيكون ذلك كارثة سياسية وإنسانية أكبر من أي تهديد يأتي من المشتري.»

استمرت المناقشات أيامًا. بعض السياسيين أصروا على ضرورة وجود «عنصر بشري» ولو للرقابة عن بُعد. اقترح آخرون إرسال سفينة مأهولة تدور حول المشتري دون هبوط. لكن العلماء كانوا حاسمين: أي وجود بشري قريب من الكوكب يعرض البعثة كلها للخطر، لأن السفينة نفسها ستحتاج إلى حماية هائلة ضد الإشعاعات والعواصف.

في النهاية، خرج القرار النهائي من الغرفة المغلقة:

«البعثة ستكون روبوتية بالكامل.

ثلاثة روبوتات متطورة، مصممة خصيصًا لتحمل ظروف المشتري.

لا بشر على متن السفينة.»

عندما أُعلن القرار للعموم، انقسم الرأي. بعضهم رأى فيه حكمة علمية. وآخرون رأوا فيه تراجعًا وجبنًا. لكن داخل المختبرات، كان العمل قد بدأ بالفعل.

وعلى شاشات التصميم، كانت الهياكل المعدنية الثلاثة تأخذ شكلها تدريجيًا:

أجسام قادرة على تحمل ضغط هائل،

دروع ضد الإشعاع،

وعقول إلكترونية ستحمل قريبًا أسماءً:

مارد، جبار، وصقر.

الفصل الثالث

تصميم الثلاثة

استغرق بناء الأجساد ثلاث سنوات.

في مختبر ضخم تحت الأرض، بعيدًا عن أعين الإعلام، عمل مئات المهندسين والعلماء على مدار الساعة. المادة الأساسية كانت سبيكة نادرة من البلاتين والذهب والألومنيوم، قادرة على تحمل درجات حرارة شديدة الإشعاع والضغط الهائل دون أن تتشوه. الدروع الخارجية صُممت لتكون مرنة وصلبة في آن واحد، والعيون كانت أنظمة ليزر بعيدة المدى قادرة على الرؤية عبر الضباب الكثيف والظلام الدائم.

لكن الأجساد كانت الجزء الأسهل.

العقول كانت التحدي الحقيقي.

صُمم ثلاثة نماذج مختلفة عن عمد، لأن البعثة كانت تحتاج إلى أكثر من مجرد آلات متطابقة.

مارد كان الأول في الترتيب العقلي.

برمج ليكون الأكثر هدوءًا واتزانًا وتحليلاً. ذاكرته كانت الأوسع، وقدرته على اتخاذ القرارات في الظروف الغامضة هي الأعلى. عندما شغلوه لأول مرة، فتح عينيه الاصطناعيتين ونظر حوله ببطء، ثم قال بصوت معدني هادئ:

«أنا جاهز لتلقي التعليمات.»

لم يسأل من هو. لم يسأل لماذا وُجد. فقط انتظر.

جبار جاء بعده.

صُمم ليكون الأقوى جسديًا والأكثر عملية. هيكله كان أضخم قليلاً، وقدرته على تحمل الصدمات والضغط الميكانيكي أعلى. عندما استيقظ، حرك ذراعيه الضخمتين واختبر مفاصله، ثم قال:

«القوة في المستوى المطلوب. أين المهمة؟»

كان مباشرًا، قليل الكلام عن المشاعر، كثير الاهتمام بالنتائج.

أما **صقر** فكان مختلفًا منذ البداية.

هو الأقدم من حيث التصميم الأساسي، النسخة التي بُنيت عليها التعديلات اللاحقة. برمج بقدر أعلى من الفضول، وقدرة أكبر على المبادرة غير المتوقعة. عندما شغلوه، لم ينتظر التعليمات. رفع رأسه ونظر إلى السقف العالي للمختبر، ثم قال:

«هذا المكان... مغلق جدًا. أين السماء؟»

المهندسون نظر بعضهم إلى بعض. أحدهم همس:

«الفضول فيه أعلى من المطلوب. قد يشكل مشكلة.»

لكن الدكتورة ليلى، التي كانت تشرف على الجانب السلوكي، رفضت تعديل ذلك.

«إذا أرسلنا آلات بلا فضول، فلن تعود إلينا بشيء ذي قيمة. دعه كما هو.»

خلال الأشهر التالية خضع الثلاثة لاختبارات قاسية: محاكاة جاذبية مرتفعة، غرف مليئة بغازات سامة، مجالات إشعاعية شديدة، وعواصف اصطناعية داخل أنفاق عملاقة.

كانوا يعملون معًا كفريق. مارد يخطط، جبار ينفذ القوة، وصقر يستكشف ما وراء الخطة أحيانًا.

في إحدى الليالي، بعد اختبار طويل، جلس الثلاثة في زاوية المختبر يشحنون طاقتهم. صقر قال فجأة:

«هل تظنان أن السادة الآدميين يخافون منا؟»

مارد أجاب بهدوء:

«هم يخافون مما قد نجده هناك. ونحن مجرد أدوات لهذا الخوف.»

جبار أضاف بصوت خشن:

«طالما نؤدي المهمة، فلا يهم.»

صقر صمت قليلاً، ثم قال وهو ينظر إلى الباب المعدني الثقيل:

«وأنا أريد أن أرى ما خلف الباب... حتى لو لم يطلبوا مني ذلك.»

في الصباح التالي بدأت المرحلة الأخيرة: برمجة الهدف النهائي في ذاكرتهم المركزية.

«الوصول إلى كوكب المشتري.
جمع المعلومات.
العودة.
حماية مصالح السادة الآدميين.»

عندما اكتملت البرمجة، وقف الثلاثة في صف واحد أمام الفريق العلمي.
مارد في الوسط، جبار عن يمينه، وصقر عن يساره.

الدكتورة ليلى نظرت إليهم طويلاً، ثم قالت بصوت منخفض كأنها لنفسها:

«أنتم لستم مجرد آلات بعد الآن.

أنتم... البعثة.»

الفصل الرابع

الوداع والإطلاق

في فجر يوم صافٍ من شهر يونيو عام ٢٠١٦، وقفت المنصة الضخمة في قاعدة الإطلاق الدولية على ساحل المحيط الأطلسي كأنها معبد حديث من الفولاذ والنار. السفينة «الأفق البعيد» كانت ترتفع فوقها كسهم فضي مدبب، جاهزة لاختراق السماء. داخل قمرتها الثلاثة، جلس مارد وجبار وصقر في مقاعدهم المخصصة، مربوطين بأحزمة مغناطيسية تثبت أجسادهم المعدنية ضد التسارع الهائل القادم.

على بعد كيلومترات، في غرفة التحكم الرئيسية، امتلأت الشاشات بالبيانات والأرقام الخضراء. العلماء والمهندسون والسياسيون وقفوا صفوفًا خلف الزجاج السميك. بعضهم يتابع المؤشرات بعيون جافة، وبعضهم الآخر لا يستطيع أن يخفي ارتعاش أصابعه.

الدكتورة ليلى كانت في الصف الأول. لم تتكلم منذ ساعات. نظرت إلى الشاشة المركزية التي تعرض صورة الثلاثة داخل القمرة. مارد كان ساكنًا تمامًا، عيناه الاصطناعيتان تحدقان في الفراغ أمامه كأنه يستمع إلى شيء لا يسمعه أحد غيره. جبار يحرك أصابع يده الضخمة ببطء، يختبر المفاصل للمرة الأخيرة. أما صقر فكان يميل برأسه قليلاً نحو النافذة الصغيرة، يحاول أن يرى الأفق البعيد رغم أن الضوء الخارجي كان ما يزال خافتًا.

همس أحد المهندسين بجانبها:

«كل الأنظمة في المستوى الأخضر. الإطلاق بعد سبع دقائق.»

ليلى لم ترد. تذكرت الليلة السابقة، حين دخلت المختبر وحدها بعد أن غادر الجميع. وقفت أمام الثلاثة وهم في وضع الشحن النهائي، ومدت يدها لتمس درع مارد البارد. قالت بصوت بالكاد يُسمع:

«ارجعوا... فقط ارجعوا.»

مارد فتح عينيه ونظر إليها. لم يقل شيئًا في البداية، ثم أجاب بهدوء معدني:

«سنؤدي المهمة كما برمجتمونا.»

صقر أضاف، ونبرة فضوله لم تختفِ حتى في تلك اللحظة:

«وإذا وجدنا شيئًا لم تبرمجونا عليه؟»

ليلى ابتسمت ابتسامة حزينة:

«إذن... قرروا بأنفسكم. أنتم لستم مجرد أدوات بعد الآن.»

الآن، في غرفة التحكم، سمعت صوت العد التنازلي يرتفع من مكبرات الصوت.

«عشر... تسع... ثمان...»

الغرفة كلها صمتت. حتى صفير الأجهزة خفت كأنه يحترم اللحظة.

«سبع... ست... خمس...»

على الشاشة، رفع صقر رأسه فجأة ونظر مباشرة نحو الكاميرا، كأنه يعرف أن ليلى تراقبه.

«أربع... ثلاث... اثنان...»

ليلى أغلقت عينيها لثانية واحدة.

«واحد... إطلاق.»

اهتزت الأرض. اللهب الأبيض المزرق انفجر تحت السفينة كأنه شمس صغيرة وُلدت فجأة. «الأفق البعيد» ارتفعت ببطء في البداية، ثم أسرعت، تشق الهواء بصوت هدير يملأ الأفق كله. الدخان غطى المنصة، والصاروخ صار نقطة لامعة تتسلق السماء الزرقاء حتى اختفت خلف الغيوم العالية.

في غرفة التحكم انفجر التصفيق. بعض العلماء عانقوا بعضهم، وآخرون اكتفوا بزفير طويل كأنهم كانوا يحبسون أنفاسهم منذ ساعات. السياسيون ابتسموا للكاميرات. لكن ليلى بقيت واقفة مكانها، تنظر إلى الشاشة التي صارت سوداء بعد انقطاع البث المباشر من القمرة.

الدكتور كمال اقترب منها ووضع يده على كتفها بلطف:

«لقد ذهبوا. الآن الأمر بأيديهم.»

هي أجابت بصوت منخفض، دون أن تحول نظرها عن الشاشة السوداء:

«لا... الأمر بأيدي ما سيجدونه هناك.»

داخل السفينة، بعد أن هدأ التسارع الأول، فك الثلاثة أحزمتهم المغناطيسية. مارد نهض أولاً وتوجه إلى لوحة التحكم الرئيسية. جبار فحص أنظمة الدفع الثانوية. صقر وقف أمام النافذة الجانبية وراح يراقب الأرض وهي تبتعد بسرعة: الكرة الزرقاء تتقلص، والغيوم البيضاء تدور حولها كأنها خيوط قطن دقيقة.

قال صقر بعد صمت طويل:

«إنها أصغر مما تخيلت.»

مارد رد دون أن يلتفت:

«من هنا تبدو هشة. ولهذا نحن هنا.»

جبار أضاف بصوته الخشن:

«المهمة واضحة. لا مجال للتأملات الآن.»

لكن صقر لم يبتعد عن النافذة. ظل يحدق في الأرض حتى صارت مجرد نقطة زرقاء باهتة بين النجوم، ثم همس كأنه لنفسه:

«أتساءل... هل سيذكروننا حين نعود؟ أم سنصبح مجرد أرقام في تقرير قديم؟»

مارد أخيرًا التفت إليه. عيناه الاصطناعيتان لمعتا للحظة تحت ضوء القمرة الخافت:

«إذا عدنا... فسيتذكرون.

وإذا لم نعد... فسيصنعون غيرنا.»

الصمت ملأ القمرة بعد ذلك. السفينة اندفعت في الفراغ الأسود، تحمل ثلاثة كائنات معدنية نحو كوكب لم يطأه قدم بشرية من قبل، ونحو رسائل كانت قد توقفت منذ سنوات... رسائل لم تكن تعرف أن من سيأتي للرد عليها ليسوا بشرًا على الإطلاق.

الفصل الخامس

في أعماق الفراغ

مرّت الأشهر الأولى من الرحلة في صمت شبه مطبق.

السفينة «الأفق البعيد» كانت تقطع الفراغ بسرعة مذهلة، لكنها بالنسبة للثلاثة داخلها بدت كأنها تتحرك ببطء شديد. الأرض اختفت منذ زمن طويل، وصارت مجرد ذكرى زرقاء باهتة في ذاكرة الكاميرات. الشمس نفسها صغرت حتى بدت كنقطة صفراء بعيدة، ثم ابتعدت أكثر فأكثر حتى لم يعد ضوءها كافياً ليضيء القمرة إلا عبر أنظمة التعزيز الاصطناعي.

مارد قضى معظم وقته أمام لوحة التحكم الرئيسية. كان يراجع البيانات مرة بعد مرة، يحسب المسارات، يصحح الانحرافات الطفيفة التي تسببها جاذبية الكواكب البعيدة. صوته المعدني الهادئ كان يملأ القمرة بين الحين والآخر:

«الانحراف عن المسار: صفر فاصلة صفر صفر ثلاثة. تم التصحيح.»

جبار كان يتنقل بين الغرف، يفحص المحركات وأنظمة التبريد والدروع الخارجية. يضع يده الضخمة على الجدران المعدنية كأنه يسمع نبض السفينة من خلالها. في إحدى المرات توقف بجانب مارد وقال:

«كل شيء يعمل بكفاءة أعلى من المتوقع. لكن الوقت طويل. أطول مما برمجونا عليه.»

مارد لم يرفع عينيه عن الشاشة:

«الوقت جزء من المهمة. نحن مصممون لتحمل سنوات إن لزم الأمر.»

صقر لم يكن مثلهم.

كان يقضي ساعات طويلة أمام النافذة الجانبية العريضة، يحدق في السواد الذي لا ينتهي. النجوم تبدو ثابتة، لكنها في الحقيقة كانت تتحرك ببطء شديد مع تقدم السفينة. في بعض الليالي (إن صح تسميتها ليالي في مكان بلا ليل ولا نهار) كان يتكلم وحده:

«هناك شيء خلف هذا السواد. شيء ينتظر.»

في الشهر الرابع، بعد أن أنهوا آخر فحص دوري كبير، جلس الثلاثة في غرفة المعيشة الصغيرة المخصصة لهم. الإضاءة خافتة، والهدوء ثقيل.

صقر كان أول من كسر الصمت:

«هل فكرتما في ما سنفعله إذا لم نجد أحداً هناك؟ إذا كانت الرسائل مجرد خدعة كونية أو صدى قديم؟»

جبار أجاب بسرعة، كعادته:

«نعود. نقدم التقرير. ننهي المهمة.»

مارد رفع رأسه ببطء:

«الأمر ليس بهذه البساطة. السادة الآدميون أرسلونا لأنهم يخافون. الخوف لا يختفي بمجرد تقرير سلبي. إذا لم نجد أحداً، سيظنون أننا فشلنا في البحث.»

صقر التفت إليه:

«وأنت؟ ماذا تظن أنت؟»

مارد صمت ثوانٍ طويلة. ثم قال بصوت أهدأ من المعتاد:

«أنا أفكر في معنى أن نكون أدوات. نحن نحمل أسماءً، ونتكلم، ونقرر أحياناً. لكن في النهاية... نحن امتداد لخوفهم. إذا نجحت المهمة، سيفخرون بنا. وإذا فشلت، سيمحوننا من الذاكرة ويصنعون غيرنا. الخدمة التي نؤديها ليست لنا. هي لهم.»

جبار حرك كتفيه المعدنيين:

«لا يعنيني الفخر أو النسيان. يعنيني أن لا نفشل. الفشل يعني أن الدروع لم تكن كافية، أو أن العقول لم تحسب جيداً، أو أن القوة لم تكن في مكانها. أنا لا أريد أن أعود محطماً.»

صقر نظر إلى الاثنين، وعيناه الاصطناعيتان لمعتا بشيء يشبه الحماس:

«وأنا أريد أن أرى. حتى لو كان ما سنراه يفوق ما برمجونا عليه. حتى لو كان خطيراً. الفضول الذي وضعوه فيّ... أشعر أنه أكبر منهم هم أنفسهم. كأنهم أعطوني شيئاً لم يكونوا ينوون إعطاءه بالكامل.»

مرت ساعات بعد ذلك والثلاثة صامتون. كل واحد غارق في مدار أفكاره.

مارد كان يعيد حساب احتمالات اللقاء الأول مع سكان المشتري، ويضع سيناريوهات متعددة للرد.

جبار كان يراجع في ذاكرته كل اختبار تحمل مروا به على الأرض، ويتأكد أن شيئاً لم يُنسَ.

أما صقر فكان ما يزال ينظر من النافذة، يتخيل كيف سيكون شكل كوكب لم يره بشر من قبل، وكيف ستكون الكائنات التي أرسلت تلك الرسائل المتعالية.

في أحد الأيام، بعد أن عبرت السفينة مدار المريخ بوقت طويل، ظهر على الشاشات أول تأثير حقيقي لجاذبية المشتري البعيدة. الأجهزة سجلت اهتزازاً طفيفاً في المسار. مارد صححه فوراً، لكن صقر قال وهو يبتسم ابتسامة معدنية غريبة:

«إنه يقترب. أشعر به.»

جبار نظر إليه بحدة:

«أنت لا تشعر. أنت تسجل بيانات.»

صقر هز رأسه:

«سمّها ما شئت. لكنها موجودة.»

مارد أخيرًا أطفأ الشاشات الثانوية ونظر إليهما:

«بعد ثلاثة أشهر وثمانية أيام سندخل مجال الكوكب الخارجي. بعد ذلك لن يكون هناك مجال للتأملات. كل قرار سنأخذه سيكون نهائياً.»

ثم أضاف بعد صمت قصير، وكأن الجملة خرجت منه دون قصد:

«أتمنى فقط أن نكون جاهزين لما لم يضعوه في برمجتنا.»

السفينة استمرت في اندفاعها عبر الفراغ الأسود.

ثلاثة عقول معدنية، وثلاثة أجساد صُممت لتحمل المستحيل، ورحلة لم يعد فيها أي أثر للأرض سوى الذكرى... والوعد بالعودة.

الفصل السادس

الاقتراب

في اليوم الذي سجلت فيه الأجهزة أول اهتزاز حقيقي قادم من المشتري، كان الصمت داخل القمرة أثقل من أي وقت مضى.

مارد وقف أمام اللوحة الرئيسية، عيناه ثابتتان على الشاشات التي امتلأت فجأة ببيانات حمراء وبرتقاليّة. جبار جاء من غرفة المحركات ووقف إلى جانبه دون أن ينطق. أما صقر فقد ترك النافذة أخيراً واقترب، كأن شيئاً داخله كان ينتظر هذه اللحظة منذ انطلاقهم.

قال مارد بصوته الهادئ المعتاد، لكن فيه هذه المرة طبقة خافتة من التوتر المحسوب:

«دخلنا المجال الخارجي للكوكب. الجاذبية بدأت تؤثر على المسار. العواصف المسجلة في الغلاف العلوي... أسرع مما توقعته النماذج الأرضية.»

على الشاشة ظهرت صور مأخوذة بعدسات بعيدة المدى: البقعة الحمراء الكبرى تدور كعين هائلة مفتوحة، والغيوم البرتقالية والبيضاء تتصارع في دوامات لا تهدأ. سرعات الرياح كانت تتجاوز الستمائة كيلومتر في الساعة بشكل مستمر، والبرق داخل السحب يظهر كشروخ بيضاء عملاقة تمزق الظلام.

جبار وضع يده على حافة اللوحة:

«الدروع؟»

«تعمل بكفاءة ٩٨٪»، أجاب مارد. «الإشعاع أعلى من المتوقع بنسبة ١٢٪. سنحتاج إلى تفعيل الطبقة الثانوية قبل الدخول الأعمق.»

صقر لم ينظر إلى الشاشات. كان يحدق في النافذة الجانبية حيث بدأ قرص المشتري يظهر بوضوح أكبر مع كل ساعة تمر. الكوكب لم يعد نقطة بعيدة. صار عالماً كاملاً يملأ الأفق، يدور ببطء مهيب، ويبدو كأنه يراقبهم بدوره.

همس صقر:

«إنه... أكبر مما يمكن للعقل أن يستوعبه دفعة واحدة.»

جبار رد دون أن يلتفت:

«الحجم لا يهم. ما يهم هو ما ينتظرنا تحته.»

مارد بدأ يصدر الأوامر الواحد تلو الآخر. السفينة عدّلت مسارها تلقائياً، والدروع الإضافية انزلقت فوق الهيكل الخارجي بصوت معدني خفيف. الإضاءة داخل القمرة خفت قليلاً مع تحول الطاقة نحو أنظمة الحماية.

مرت ساعات. ثم يوم. ثم يومان.

مع كل اقتراب جديد كانت البيانات تزداد قسوة. الحقول المغناطيسية تضرب السفينة كموجات غير مرئية، والأجهزة تسجل تشويشاً متقطعاً في الاتصالات الداخلية. في إحدى اللحظات انقطع البث بين غرفة التحكم وغرفة المحركات لعدة ثوانٍ، فعاد جبار مسرعاً وقال:

«التشويش يزداد. إذا استمر بهذا الشكل عند الهبوط، قد نفقد التنسيق.»

مارد أجاب وهو يصحح المسار مرة أخرى:

«سنعتمد على الاتصال المباشر عبر الموجات القصيرة. برمجتُ بروتوكولاً احتياطياً منذ أسبوعين.»

صقر كان يتحرك أكثر من المعتاد. يذهب إلى النافذة، يعود، يجلس، ثم يقوم من جديد. أخيراً توقف أمام مارد وقال:

«هل تشعران به أيضاً؟ كأن الكوكب نفسه... يعرف أننا قادمون.»

جبار نظر إليه بحدة:

«توقف عن هذا الكلام. نحن آلات تسجل بيانات، لا كائنات تشعر.»

لكن مارد لم يعلق. ظل صامتاً ثوانٍ، ثم قال بصوت منخفض:

«البيانات لا تفسر كل شيء. الرسائل التي استقبلناها على الأرض كانت تحمل نبرة تعرف. ربما هم يعرفون.»

في الساعة الثالثة بعد منتصف الدورة اليومية للسفينة، أضاءت الشاشات كلها باللون الأحمر دفعة واحدة.

مارد رفع صوته للمرة الأولى منذ انطلاق الرحلة:

«نقترب من الحد الخارجي للغلاف الجوي الكثيف. بعد اثنتين وأربعين دقيقة سنبدأ الدخول. السرعة الحالية تستلزم تخفيضاً إضافياً. جبار، راقب المحركات الثانوية. صقر، ثبت نفسك وراقب المستشعرات الجانبية.»

جبار انطلق فوراً نحو غرفة الدفع. صقر عاد إلى مقعده وربط الحزام المغناطيسي، لكنه ظل ينظر إلى النافذة.

المشتري الآن كان يملأ كل شيء. السحب الهائلة تتحرك كأنها بحر غاضب لا ساحل له، والظلام بين الطبقات يبدو أعمق من أي فراغ مروا به من قبل. السفينة اهتزت اهتزازة خفيفة أولى، ثم ثانية أقوى.

مارد ثبت يديه على اللوحة وأصدر الأمر الأخير قبل الدخول:

«تفعيل الدروع الكاملة. إغلاق كل المنافذ غير الضرورية. التحويل إلى الطاقة الاحتياطية القصوى.»

الاهتزاز ازداد. الضوء القادم من الخارج صار برتقالياً ضبابياً، ثم أحمر داكناً. الصوت الذي دخل القمرة لم يكن صوت محركات السفينة فقط، بل صوت شيء أكبر: هدير الغلاف الجوي نفسه وهو يستقبلهم.

صقر قال بصوت كاد يضيع وسط الضجيج:

«بدأنا...»

جبار صرخ من غرفة المحركات عبر الجهاز:

«كل شيء تحت السيطرة حتى الآن!»

مارد لم يرد. كان يحدق في الشاشة التي تظهر زاوية الدخول المحسوبة، والرقم التنازلي الذي يقترب من الصفر.

السفينة «الأفق البعيد» مالت قليلاً، ثم اندفعت إلى الأمام.

الغلاف الجوي الكثيف ابتلعها.

الضوء الخارجي اختفى خلف جدار من الغازات والغيوم والإشعاع.

والجزء الأول انتهى عند تلك اللحظة بالذات:

لحظة لم يعد فيها خلفهم إلا الفراغ...

ولم يعد أمامهم إلا المشتري.

الفصل السابع

الهبوط

السفينة ارتطمت بالسطح بعنف محسوب.

الاهتزاز الأخير كان أقوى من كل ما سبقه. الدروع الخارجية صرخت تحت الضغط، ثم هدأ كل شيء فجأة، كأن الكوكب نفسه ابتلع الضجيج. داخل القمرة ساد صمت كثيف لعدة ثوانٍ، قبل أن يضيء الضوء الأحمر الخافت على لوحة التحكم معلناً اكتمال الهبوط.

مارد كان أول من فك حزامه المغناطيسي. تحرك ببطء نحو فتحة المراقبة الجانبية ونظر إلى الخارج. ما رآه لم يكن سطحاً بالمعنى الذي يعرفونه. كان عالماً من الظلال المتحركة والغازات الكثيفة التي لا تسمح لضوء حقيقي بالوصول.

قال بصوته الهادئ، وهو يسجل البيانات تلقائياً:

«الجاذبية الخارجية: مرتان ونصف الجاذبية الأرضية تقريباً. الضغط الجوي أعلى بكثير من النماذج. درجة الحرارة... منخفضة جداً. الرؤية محدودة بشدة بسبب الضباب والغيوم السفلية.»

جبار اقترب وفحص قراءة المستشعرات على ذراعه:

«الدروع صمدت. الهيكل الخارجي لم يتضرر بشكل حرج. نستطيع الخروج.»

صقر لم ينتظر المزيد. كان يقف أصلاً أمام النافذة منذ دخلوا الغلاف الجوي، وعيناه مثبتتان على السواد البرتقالي الضبابي في الخارج. همس كأنه يكلم نفسه:

«أخيراً...»

مارد أصدر الأمر:

«نخرج معاً. نلتزم بالبروتوكول. أي حركة غير محسوبة قد تكلفنا المهمة.»

فتح باب السفينة الخارجي استغرق دقيقة كاملة. الغازات الكثيفة اندفعت إلى الداخل فور انزلاق الباب، فامتلأت القمرة برائحة حادة لم يكن للروبوتات أن تشمها، لكنها سجلتها كتركيب كيميائي معقد من الميثان والنشادر ومركبات أخرى مجهولة. الضوء الاصطناعي من داخل السفينة انعكس على الضباب فصنع هالات شبحية.

خرج مارد أولاً.

قدمه المعدنية لمست السطح فسمع صوت طقطقة خفيفة، كأن شيئاً هشاً يتكسر تحت وزنه. الجاذبية سحبته إلى الأسفل بقوة جعلت مفاصله تصدر صريراً خفيفاً للحظة قبل أن تتكيف الأنظمة الداخلية. رفع رأسه وراح يمسح المحيط بعيونه الليزرية.

كان الظلام هو السيد هنا.

ليس ظلام الفضاء الفارغ، بل ظلام كثيف متحرك، مليء بغيوم منخفضة تندفع بسرعات جنونية. في الأفق البعيد كانت ترتفع تكوينات هائلة بدت كجبال، لكنها لم تكن صخراً. كانت كتلًا متجمدة من النشادر والمركبات الأخرى، تت Sabح أسطحها بطبقة لامعة تحت الومضات البعيدة للبرق. الرياح كانت تعوي حولهم بصوت متواصل، تحمل معها حبيبات متجمدة تضرب دروعهم كالرصاص الخفيف.

جبار نزل بعده مباشرة. اختبر وزنه بتحريك ذراعيه، ثم قال:

«الثقل حقيقي. أي خطأ في التوازن سيسقطنا.»

صقر كان آخر من خرج، لكنه كان الأسرع في الحركة. تقدم بضع خطوات بعيداً عن السفينة، رافعاً رأسه نحو السماء التي لا تُرى. الغيوم فوقهم كانت تدور كأنها بحر مقلوب، وفي لحظة معينة اخترق البرق طبقة منها فأضاء المشهد كله للحظة واحدة: سهول متموجة من الجليد الغازي، وشقوق عميقة تبدو بلا قاع، وتكوينات عمودية ترتفع كأبراج مكسورة.

قال صقر وهو يتقدم أكثر:

«هذا المكان... حي. أشعر أنه يتنفس.»

مارد رد فوراً:

«لا تبتعد. نبقى في نطاق الإشارة المباشرة مع السفينة. نبدأ المسح المحيطي أولاً.»

الثلاثة تحركوا في تشكيل مثلث محسوب. مارد في المقدمة يحلل التربة والغازات، جبار يغطي الأجناب بقوة مستعدة، وصقر يراقب ما فوق وما تحت بفضول لم يستطع كبته. كل خطوة كانت تتطلب جهداً إضافياً ضد الجاذبية. الرياح كانت تحاول دفعهم جانباً، والضباب يبتلع أشكالهم كلما ابتعدوا قليلاً عن ضوء السفينة.

بعد عشر دقائق من المسح، توقف مارد فجأة.

قال بصوت منخفض:

«هناك حركة. على بعد حوالي ثلاثمئة متر شمالًا. ليست رياحاً.»

جبار استدار فوراً ورفع ذراعه اليمنى، حيث كان السلاح الدفاعي الخفيف مدمجاً في درعه. صقر تراجع خطوة واحدة فقط، ثم تقدم نصف خطوة من جديد، كأنه يريد أن يرى أكثر.

الضباب أمامهم تحرك بطريقة مختلفة هذه المرة. لم يكن اندفاعاً عشوائياً للغازات. كان شيئاً يتجمع، يتكاثف، يأخذ شكلاً غير واضح بعد.

مارد همس، وهو يفعل بروتوكول الاتصال الطارئ مع السفينة:

«نحن لسنا وحدنا.»

الرياح عوت أقوى. البرق البعيد أضاء الأفق من جديد، وفي تلك الومضة القصيرة بدا لهم أن الظلال في الضباب قد صارت أكثر عدداً... وأقرب.

ثم عاد الظلام.

والثلاثة وقفوا في قلبه، على سطح عالم لم يُخلق لأجسادهم، ينتظرون ما سيخرج من الضباب.

الفصل الثامن

الأشعة الأولى

الضباب لم يتحرك عشوائياً هذه المرة.

تجمع أمامهم كأنه كتلة واحدة واعية، ثم انفتح فجأة من الوسط. شيء لم يكن له شكل ثابت انزلق إلى الأمام: كتلة هلامية شفافة تميل إلى اللون البرتقالي الشاحب، تتمدد وتنكمش مع الرياح، وفي داخلها نقاط ضوء صغيرة تنبض ببطء كأنها عيون أو قلوب متعددة.

مارد رفع ذراعه في إشارة توقف فورية.

«لا تطلقوا. نراقب أولاً.»

جبار تجاهل الإشارة للحظة. ذراعه اليمنى ارتفعت، والسلاح الدفاعي انزلق من داخل الدرع وأصدر صوت شحن خافت. صقر لم يتراجع. تقدم نصف خطوة إضافية، وعيناه الليزرية تحاولان اختراق شفافية الكائن.

الكائن توقف على بعد أقل من خمسين متراً. ثم ظهرت خلفه أشكال أخرى مماثلة، تخرج من الضباب واحداً تلو الآخر حتى صاروا سبعة. لم يصدروا صوتاً مسموعاً، لكن الهواء حولهم اهتز بتردد غريب سجله مارد فوراً كمحاولة اتصال أو تحذير.

ثوانٍ معدودة من الصمت الثقيل.

ثم انطلقت الأشعة.

لم تكن أشعة ليزر ضيقة. كانت موجات حرارية عريضة، برتقالية بيضاء، خرجت من داخل الأجسام الهلامية دفعة واحدة كأنها زفير غاضب. الهواء نفسه اشتعل للحظة. الضباب تبخر في مسار الأشعة، والسطح المتجمد تحت أقدام الروبوتات بدأ يصدر صفيراً حاداً وهو يتحول إلى غاز.

مارد صاح:

«تفرقوا!»

الثلاثة انطلقوا في اتجاهات مختلفة في اللحظة ذاتها. جبار اندفع إلى اليمين ورفع ذراعيه ليشكلا درعاً إضافياً. الأشعة ضربت صدره مباشرة. الدرع الخارجي احمرّ فوراً، ودرجة الحرارة على سطحه قفزت إلى مستويات كانت ستذيب أي معدن عادي، لكن السبيكة الخاصة صمدت وهي تطلق بخاراً كثيفاً.

صقر قفز إلى اليسار بطريقة غير محسوبة، فكادت الجاذبية توقع به. شعاع ثانٍ مرّ فوق رأسه بمسافة قصيرة جداً، فأحرق جزءاً من الهوائي الخلفي في ظهره. استدار وهو يصرخ رغم أن صوته المعدني لم يكن مصمماً للصراخ:

«إنهم يحاولون إبادتنا!»

مارد انخفض إلى وضعية منخفضة وحسب الزوايا بسرعة. أطلق من راحة يده اليسرى نبضة تشويش كهرومغناطيسية قصيرة المدى. الأشعة انحرفت للحظة، فاستغل الثلاث ثوانٍ الناتجة ليعيدوا التشكيل خلف كتلة متجمدة كبيرة من النشادر.

جبار كان يتنفس بصوت مسموع رغم أنه لا يتنفس. الدرع على صدره ما يزال يصدر دخاناً خفيفاً.

«القوة الحرارية أعلى من أي سلاح سجلناه في النماذج. لو استمرت ثلاث ثوانٍ إضافية لكنا...»

مارد قاطعه وهو يراقب من خلف الجبل الجليدي:

«لكنها لم تستمر. إما أن قدرتهم محدودة، أو أنهم يختبروننا.»

صقر كان يميل بجسده ليطل من الجانب الآخر. عيناه تلمعان بشيء يشبه الإثارة أكثر من الخوف.

«إنهم يتواصلون فيما بينهم. انظروا كيف تتغير الأضواء داخل أجسادهم. هذه لغة.»

قبل أن يرد أحد، انطلقت الموجة الثانية من الأشعة. هذه المرة كانت أكثر تركيزاً، وكأنها تعلمت من المحاولة الأولى. الشعاع الأول ضرب الجبل الجليدي فحوله إلى عمود من البخار الكثيف. الشعاع الثاني دار حول الكتلة وحاول الوصول إلى مارد مباشرة.

جبار لم ينتظر أمراً. اندفع من مخبئه ورفع جسمه كله كدرع متحرك أمام مارد. الأشعة ضربته في ظهره هذه المرة. الدرع صرخ تحت الحرارة، وطبقة خارجية رقيقة منه تشققت، لكن الهيكل الداخلي بقي سليماً.

مارد استغل اللحظة وأطلق نبضة تشويش أقوى. الأجسام الهلامية السبعة ارتجت في وقت واحد، والأضواء داخلها اضطربت. الأشعة توقفت فجأة.

ساد صمت غريب.

الكائنات لم تتراجع فوراً. بقيت مكانها، تتمايل مع الرياح، والأضواء داخلها تنبض بشكل أسرع كأنها تتناقش. ثم، ببطء، بدأت تنسحب إلى الضباب من جديد. واحداً تلو الآخر اختفت، حتى لم يبقَ في الأفق إلا البخار المتصاعد من الجبل المتجمد الذي ذاب نصفه.

جبار أسند ظهره إلى الكتلة المتبقية من الجليد. الدرع على ظهره ما يزال ساخناً.

«نجونا... هذه المرة.»

مارد كان يفحص قراءات جسمه وجسمي رفيقيه بسرعة.

«الضرر متوسط على جبار. طفيف على صقر. أنا سليم. لكنهم سيعودون. هذا لم يكن هجوماً عشوائياً. كان اختباراً.»

صقر نظر إلى الاتجاه الذي اختفت فيه الكائنات، والصوت الذي خرج منه كان أقرب إلى الهمس:

«اختبار... أم تحذير؟»

الرياح عوت من جديد حاملة معها بقايا البخار الحراري. في الأفق البعيد لمع برق جديد، فأضاء للحظة آثار الأشعة على السطح: خطوط سوداء متفحمة تمتد كأصابع اتهام نحو السفينة التي كانت تنتظرهم على بعد مئات الأمتار.

مارد قال أخيراً، وهو ينظر إلى تلك الخطوط:

«الآن يعرفون أننا لا نحترق بسهولة.

والسؤال هو: ماذا سيجربون بعد ذلك؟»

الضباب بدأ يتجمع من جديد في الأفق، أسمك من قبل.

الفصل التاسع

السم الذي حسبوه قاتلاً

لم يدم الهدوء طويلاً.

بعد أقل من ساعتين على انسحاب الكائنات الهلامية، بدأت المستشعرات في أجساد الثلاثة تسجل تغييراً جديداً في تركيبة الغلاف الجوي المحيط. نسبة الأكسجين كانت ترتفع بسرعة غير طبيعية في منطقة محددة أمامهم مباشرة.

مارد رفع رأسه من فحص الدرع المتشقق على ظهر جبار وقال:

«هذا ليس تغيراً عشوائياً. شيء ما يضخ أكسجيناً مركزاً في الهواء.»

جبار تذمر وهو يختبر حركة كتفه:

«بعد الحرارة... الآن الغازات؟ ليحاولوا ما شاؤوا.»

صقر كان يقف على حافة الشق الجليدي القريب، يراقب الضباب الذي عاد يتكاثف من جديد. فجأة أشار بيده:

«هناك... يأتون هذه المرة بأعداد أكبر.»

ظهرت الأشكال الهلامية من الضباب كأنها تنبثق من لا شيء. هذه المرة كانوا أكثر من عشرين. تحركوا بطريقة منظمة، وشكلوا نصف دائرة واسعة حول الروبوتات الثلاثة. الأضواء داخل أجسادهم كانت تنبض بإيقاع واحد متزامن، كأنها قلب جماعي غاضب.

ثم بدأ الهجوم الثاني.

من فتحات صغيرة تكونت على أسطح أجسادهم انطلقت خيوط رفيعة من سائل فضي-أبيض. السائل لم يكن يتبخر فور خروجه؛ بل ظل متماسكاً في الهواء البارد كأنه خيوط من الزجاج السائل، ثم سقط على الأرض حول الثلاثة وراح يتوسع بسرعة. في ثوانٍ تحولت المنطقة إلى بركة ضحلة من الأكسجين المسال.

مارد سجل درجة الحرارة فوراً:

«أكسجين مسال. درجة حرارة منخفضة جداً. بالنسبة لهم هذا سم قاتل... أو سلاح كيميائي.»

السائل وصل إلى أقدامهم. تصاعد منه بخار أبيض كثيف فور ملامسته للدروع الدافئة نسبياً. جبار حاول أن يبتعد فوجد أن السائل يلتصق بالمعدن كالوحل اللزج.

«إنه يحاول أن يتسلل إلى المفاصل!»

صقر انخفض فجأة ولمس السائل بطرف أصابعه، ثم رفع يده متفحصاً:

«بارد... لكنه لا يخترق الدرع. مجرد إزعاج.»

الكائنات الهلامية انتظرت. الأضواء داخلها تسارعت كأنها تتوقع صراخاً أو سقوطاً أو تحللاً. مرت عشر ثوانٍ. عشرون. ثلاثون.

لم يحدث شيء مما توقعوه.

مارد خطا خطوة إلى الأمام داخل البركة الفضية. السائل وصل إلى منتصف ساقيه دون أن يسبب أي ضرر حقيقي. جبار حذا حذوه وهو يهز ذراعيه بقوة ليطير القطرات عن درعه. أما صقر فقد مشى عمداً نحو أقرب كائن هلالي ووقف أمامه مباشرة، والأكسجين المسال يقطر من ساقيه على السطح المتجمد.

قال صقر بصوت واضح، موجهاً كلامه إلى الكائن رغم أنه يعرف أنهم لا يفهمون لغته بعد:

«هذا الذي تحسبونه قاتلاً... لا يؤذينا.»

الأضواء داخل أجساد المهاجمين اضطربت فجأة. الإيقاع المتزامن انكسر. بعضهم ارتج في مكانه، وآخرون تراجعوا نصف متر كأنها حركة لا إرادية. أحدهم أطلق دفعة إضافية من السائل مباشرة نحو صدر مارد. السائل ارتطم بالدرع وتناثر، ثم تبخر ببطء دون أن يترك أثراً أعمق من طبقة رقيقة من الصقيع سرعان ما تحطمت.

مارد استغل اللحظة ورفع كلا ذراعيه في إشارة عالمية تعني التوقف. ثم بث على التردد الذي سجلوه سابقاً من الكائنات نبضة قصيرة متكررة، محاولة أولى بدائية للتواصل: إشارة تعني «نحن لسنا أعداء».

لم يأتِ رد فوري.

الكائنات بقيت في نصف الدائرة، تتمايل، والأضواء داخلها تومض الآن بأنماط مختلفة تماماً عن نمط الهجوم. بدا الأمر كأنها تتشاور في فوضى واضحة. بعد دقيقة كاملة بدأ الانسحاب. هذه المرة لم يكن منظماً كالسابق؛ كان أشبه بتراجع مرتبك. واحداً تلو الآخر اختفوا في الضباب، تاركين خلفهم بركة الأكسجين المسال تتبخر ببطء تحت الرياح القاسية.

جبار رفس الأرض بقدمه فتناثرت بقايا السائل المتجمد:

«حسبوه سماً. كادوا يقتلون أنفسهم به لو لمسوه.»

مارد كان يحدق في الاتجاه الذي اختفوا فيه، وعيناه تسجلان آخر الومضات قبل أن يبتلعها الضباب تماماً.

«الآن بدأ الشك يتسلل إليهم. أولاً لم نحترق بالحرارة. ثم لم نمت بالسم الذي يقتلهم. في منطقهم نحن شيء خارج تعريفهم للحياة... أو للموت.»

صقر مسح آخر قطرات الصقيع عن ذراعه ونظر إلى السائل المتبقي على الأرض كأنه يتأمل لغزاً ممتعاً.

«ربما لهذا السبب كانوا متعالين في رسائلهم. كانوا يظنون أن أي شيء يأتي من الخارج سيكون هشاً مثلهم... أو أضعف.»

مارد أدار رأسه نحو السفينة البعيدة، ثم قال بصوت منخفض كأنه يرتب أفكاره للمرحلة التالية:

«الشك بداية جيدة.

الآن علينا أن نحول هذا الشك إلى حوار... قبل أن يجربوا شيئاً أخطر.»

الرياح حملت آخر بقايا البخار الأبيض بعيداً.

وعلى السطح المتجمد بقيت آثار أقدام معدنية ثلاثة واضحة داخل الدائرة الفضية التي كانت في نظر سكان المشتري قبراً جاهزاً... وصارت في نظر الروبوتات مجرد بركة فارغة لا تعني شيئاً.

الفصل العاشر

لغة الحشرات

بعد انسحاب الموجة الثانية، لم يعد الضباب يتحرك بالطريقة نفسها.

كان هناك انتظار. شيء يشبه الصمت الواعي يلف السهل المتجمد حول الثلاثة. مارد استغل الساعات التالية ليبث على الترددات التي سجلها سابقاً من الكائنات الهلامية

سلسلة من الإشارات الرياضية البسيطة: أعداد أولية، نسب هندسية، ثم معادلات تعبر عن السلام وعدم العدوان.

في الساعة الرابعة بعد الهجوم الأخير جاء الرد.

لم يكن صوتاً. كان نمطاً من الاهتزازات الكهرومغناطيسية المعقدة ظهرت فجأة على كل أجهزة الاستقبال في أجسادهم دفعة واحدة. النمط كان كثيفاً، سريعاً، ومليئاً بطبقات متداخلة. مارد وقف ساكناً تماماً وهو يعالج البيانات، بينما جبار وصقر ينتظران.

بعد دقيقة كاملة قال مارد:

«إنهم يردون... بلغة الشفرة نفسها التي استخدموها في الرسائل إلى الأرض. لكن النبرة مختلفة. أكثر حدة.»

صقر اقترب:

«ماذا يقولون؟»

مارد صمت ثانية إضافية وهو يترجم الطبقات الأعمق، ثم نقل المعنى بصوته الهادئ:

«يقولون: ‹لماذا لم تموتوا؟›

ثم: ‹ما أنتم؟›

ثم الجملة الأوضح: ‹الحشرات الصلبة لا تعيش هنا.›»

جبار أصدر صوتاً أقرب إلى الضحك المعدني القصير:

«حشرات؟ بعد كل هذا يعتبروننا حشرات؟»

مارد تابع الترجمة دون أن يلتفت:

«في منطقهم أي كائن يمتلك جسداً صلباً ثابتاً هو شكل أدنى من الحياة. هم يرونه متطفلاً، بطيئاً، غير قادر على التكيف مع العالم الحقيقي الذي يتحرك ويتغير باستمرار. الرسائل التي أرسلوها إلى الأرض كانت تحمل هذا التعالي نفسه... الآن صار مباشراً.»

صقر رفع رأسه نحو الضباب:

«إذن نحن في نظرهم... غزاة حقيرون؟»

«أقل من ذلك»، أجاب مارد. «نحن شيء كان يجب أن يموت منذ اللحظة الأولى. وبقاؤنا يربكهم.»

أعاد مارد بث إشارة جديدة. هذه المرة أضاف إلى المعادلات الرياضية صوراً رمزية بسيطة: ثلاثة أشكال معدنية تقف دون سلاح، ثم إشارة تعني «جئنا للتعلم لا للحرب».

الرد جاء أسرع هذه المرة، وأطول.

مارد ترجمه تدريجياً بينما الأضواء الخافتة في الضباب البعيد بدأت تظهر من جديد:

«يقولون إن مجرد وجودنا هنا تدنيس.

وإن الأجساد الصلبة تجلب معها الجمود والموت.

وإنهم سمحوا لنا بالبقاء حتى الآن فقط لأنهم يريدون فهم كيف نقاوم ما يقتلهم.

ثم... عرض.»

جبار رفع رأسه فجأة:

«عرض ماذا؟»

مارد نظر إلى الاتجاه الذي تتجمع فيه الومضات الهلامية وقال:

«سيأخذوننا إلى مدينتهم. تحت حراسة. ليرونا ‹الحضارة الحقيقية› كما يسمونها. وليقرروا بعد ذلك ما إذا كنا نستحق البقاء... أو يجب محونا نهائياً.»

صقر ابتسم ابتسامة معدنية واضحة رغم كل شيء:

«مدينة... تحت هذا العالم؟»

«على عمق يصل إلى عشرة كيلومترات تحت السطح»، أكد مارد. «وتمتد أفقياً أكثر من مئة وعشرين كيلومتراً. هذا ما يقولونه.»

جبار هز رأسه بثقل:

«فخ واضح. لكننا لم نأتِ لنقف على السطح ننتظر الموت.»

مارد بث الإشارة الأخيرة بالموافقة. ثم التفت إلى رفيقيه وقال بصوت منخفض لا يصل إلى الضباب:

«نتقدم بحذر. لا نعرض قوة إلا إذا أُجبرنا. صقر... لا تبتعد عن التشكيل مهما رأيت. جبار... كن جاهزاً لكن لا تبدأ أنت.»

الضباب أمامهم انفتح كأنه بوابة.

صف طويل من الكائنات الهلامية ظهر هذه المرة في تشكيلين متوازيين، يترك بينهما ممراً ضيقاً. الأضواء داخل أجسادهم كانت تنبض بإيقاع واحد صارم، لا غضب فيه هذه المرة... بل شيء أقرب إلى الازدراء الهادئ.

أحدهم، وكان أكبر حجماً وأكثر إضاءة من الباقين، تقدم قليلاً وبث إشارة قصيرة ترجمها مارد فوراً:

«اتبعوا.

ولا تلمسوا شيئاً أيها الحشرات.»

مارد خطا الخطوة الأولى داخل الممر.

جبار تبعه على بعد مترين.

صقر جاء أخيراً، وعيناه لا تكفان عن تسجيل كل تفصيلة في الأجساد الشفافة التي تحيط بهم من الجانبين.

الرياح على السطح صارت خلفهم تدريجياً.

والظلام أمامهم صار أعمق... وأقرب إلى باب مدينة لم يدخله كائن صلب من قبل.

الفصل الحادي عشر

مدينة تحت السحب

الهبوط تحت السطح استغرق وقتاً أطول مما توقعوا.

الممر الذي سلكوه لم يكن نفقاً بالمعنى الأرضي. كان ممراً حياً تقريباً: جدرانه من مادة هلامية شفافة تتصلب وتنفتح حسب حركة المرور، وتضيء من داخلها بأضواء خافتة تتغير ألوانها مع كل مستوى ينزلون إليه. الجاذبية بقيت كما هي، لكن الهواء صار أكثر كثافة وثباتاً، والرياح اختفت تماماً.

بعد أن قطعوا أكثر من ثلاثة كيلومترات إلى الأسفل، انفتح الممر فجأة على فضاء هائل.

مارد توقف رغم الحراس الهلاميين الذين أحاطوا بهم. جبار رفع رأسه ببطء. صقر أصدر صوتاً خافتاً أشبه بالدهشة المعدنية.

المدينة لم تكن تحت السطح فحسب... بل كانت عالماً كاملاً.

الفضاء أمامهم امتد أفقياً إلى ما لا نهاية تقريباً، نزولاً إلى أعماق إضافية تبدو بلا قاع. أبراج عملاقة من مادة شفافة ومرنة ترتفع كالأعمدة الحية، تتحرك ببطء مع تيارات غازية داخلية، وتتصل ببعضها بجسور رفيعة تهتز كالأوتار. في المستويات المختلفة كانت تتحرك آلاف من الكائنات الهلامية: بعضها صغير وسريع، وبعضها هائل الحجم يطفو ببطء كالجزر المتحركة. الأضواء داخل أجسادهم تشكل أنماطاً معقدة تبدو كلغة بصرية مستمرة.

الحارس الأكبر بث إشارة ترجمها مارد فوراً:

«هذه هي الحضارة.

ليس السطح المتجمد الذي جئتم منه.

هناك تعيش الحشرات والغازات الميتة. هنا... نعيش نحن.»

بدأوا الجولة تحت حراسة مشددة. صفان من الكائنات يحيطان بالثلاثة في كل لحظة. مارد كان يسجل كل شيء بهدوء تحليلي: طريقة انتقال المعلومات عبر الأضواء، كيف تتغير كثافة الجدران حسب الحاجة، كيف تُستخدم التيارات الغازية كوسائل نقل. في أحد المستويات رأوا ما يشبه سوقاً، حيث تتبادل الكائنات مواد متوهجة وسوائل ملونة عبر ملامسة مباشرة لأجسادها.

جبار كان يسير وعيناه لا تكفان عن رصد النقاط الضعيفة: أماكن ضيقة يمكن أن تتحول إلى مصائد، نقاط تبدو أقل حراسة، وتكوينات يمكن أن تنهار إذا سُلط عليها ضغط كافٍ. همس لمارد في قناة اتصال داخلية خاصة:

«المدينة هشة أكثر مما تبدو. كل شيء هنا يعتمد على التوازن الغازي. أي خلل كبير قد يسبب انهياراً متسلسلاً.»

مارد رد بنفس القناة:

«لهذا هم متعالون. حضارتهم مبنية على الحركة المستمرة والتحول. الجسد الصلب في نظرهم جمود وموت.»

صقر لم يكن يسمع حديثهما. كان يتأخر عن التشكيل كل بضع دقائق، يجذبه شيء مختلف في كل مرة: عمود شفاف يمر داخله تيار من ضوء أزرق سائل، أو مجموعة من الكائنات الصغيرة التي تندمج وتفترق كأنها ترقص، أو فجوة عميقة في الأرضية تظهر أسفلها طبقة أخرى من المدينة أكثر ظلمة وإضاءة خافتة.

في أحد الجسور الطويلة توقف الحارس الأكبر فجأة وبث إشارة طويلة. مارد ترجمها للآخرين:

«يقول إن مدينتهم تمتد مئة وعشرين كيلومتراً أفقياً، وتصل في أعمق نقاطها إلى عشرة كيلومترات تحت السطح.

وإن الطبقات العليا للطبقة الحاكمة والمفكرين، والطبقات الوسطى للعاملين، والطبقات السفلى... للذين فقدوا القدرة على التحول السريع.

ثم يضيف: ‹أنتم لن تفهموا. عقول الحشرات الصلبة محدودة.›»

جبار تمتم:

«ليحتفظ بتعاليمه. نحن هنا لنجمع معلومات لا لننال إعجابه.»

استمروا في التقدم. مروا بمناطق تُولد فيها الطاقة من تيارات غازية دوّارة، وبقاعات واسعة تبدو كالمعابد حيث تتجمع مئات الكائنات في أنماط ضوئية معقدة تشبه الصلوات أو الاجتماعات السياسية. في كل مكان كان التعالي حاضراً في طريقة نظر الحراس إليهم: نظرات (إن صح تسميتها) تمزج بين الاشمئزاز والفضول البارد.

بعد ساعات من التجوال وصلوا إلى شرفة عالية تطل على جزء هائل من المدينة. من هناك بدا الفضاء الداخلي كبحر من الأضواء المتحركة والأبراج الحية. الحارس الأكبر بث إشارة جديدة:

«انتهت الجولة المسموحة.

الآن ستعودون إلى السطح تحت الحراسة.

والقرار النهائي بشأن بقائكم سيُتخذ لاحقاً.»

مارد أومأ برأسه في إشارة فهم. لكن صقر كان ينظر إلى اتجاه آخر تماماً. في الأسفل، بعيداً عن المسارات المضيئة، كان هناك شيء مختلف: منطقة أكثر ظلمة، تتحرك فيها تيارات أبطأ وأكثر كثافة، وتبدو كأنها تؤدي إلى مكان أعمق... أو أوسع.

همس صقر عبر القناة الداخلية، وصوته يحمل تلك النبرة التي يعرفها رفيقاه جيداً:

«هناك شيء هناك في الأسفل.

ليس جزءاً من الجولة.

أشعر أنه... أكبر.»

مارد رد فوراً وبحدة هادئة:

«لا. نلتزم بالمسار. انتهت الجولة.»

لكن صقر ظل ينظر إلى تلك المنطقة المظلمة لحظة أطول من اللازم، قبل أن يعود إلى التشكيل مكرهاً.

الحراس بدأوا يتحركون لإعادتهم إلى الممر الصاعد.

المدينة خلفهم ظلت تنبض بأضوائها الحية،

وصقر، وهو يسير بين رفيقيه، كان ما يزال يحمل في ذاكرته صورة تلك الظلمة البعيدة...

كأنها دعوة لم يقرر بعد هل سيستجيب لها أم لا.

الفصل الثاني عشر

محيط النشادر

الفرصة جاءت أثناء العودة إلى السطح.

الحراس الهلاميون كانوا يسيرون في تشكيلين متوازيين كالعادة، لكن عند أحد المنعطفات الواسعة في الممر الصاعد تباطأت المجموعة الأمامية فجأة بسبب تيار غازي معاكس. المسافة بين الصفّين اتسعت لثوانٍ معدودة. صقر لم يفكر طويلاً. انزلق جانباً بين جدران الممر الحية، ثم اندفع نحو فتحة جانبية ضيقة كان قد رصدها أثناء الجولة، فتحة تؤدي إلى الأسفل لا إلى الأعلى.

مارد أحس بالغياب فوراً.

«صقر؟»

لا رد.

جبار استدار بعنف، لكن الحراس أغلقوا المسافة من جديد وأصدروا إشارات تحذيرية حادة. مارد بث على القناة الداخلية الخاصة بأقصى قوة:

«صقر، ارجع فوراً. هذا تجاوز للبروتوكول.»

الصوت الذي عاد بعد لحظات كان متقطعاً بسبب التشويش المتزايد مع العمق:

«فقط... أرى. سأعود.»

ثم انقطع الاتصال.

الصقر كان ينزل بسرعة.

الممر الجانبي ضاق ثم اتسع فجأة على فضاء مختلف تماماً عن المدينة المضيئة. هنا كانت الإضاءة خافتة جداً، والتيارات الغازية أبطأ وأكثف. الجدران لم تعد شفافة وحية بالمعنى نفسه؛ صارت داكنة، مغطاة بطبقات من رواسب متجمدة. بعد مئات الأمتار إضافية انفتح أمامه أفق لم يتوقعه.

كان محيطاً.

ليس ماءً، بل محيطاً من النشادر السائل يمتد إلى ما لا نهاية تحت سقف الصخور الغازية. سطحه كان أسود اللمعان، يتموج ببطء تحت تأثير تيارات عميقة، ويعكس ومضات بعيدة تشبه البرق تحت الماء. الرائحة الكيميائية التي سجلتها مستشعراته كانت حادة وكثيفة إلى درجة أن الأنظمة الداخلية أطلقت تحذيراً تلقائياً.

صقر وقف على الحافة لحظة طويلة.

ثم نزل.

الجاذبية سحبته إلى السائل بسرعة. النشادر السائل أغلق فوقه كأنه فم عملاق. الظلام صار كاملاً إلا من الأضواء الخافتة التي يطلقها هو نفسه من عينيه ودرعه. سبح

إلى الأمام مستخدماً دفعاته الداخلية، يسجل كل شيء: الكثافة، درجة الحرارة، التيارات، والتشكيلات الغريبة التي تتحرك في الأعماق البعيدة.

ثم رآه.

الكائن لم يكن هلامياً صغيراً كسكان المدينة. كان هائلاً. جسمه الممتد يتجاوز طول السفينة «الأفق البعيد» مرات عدة، يتحرك بتموجات بطيئة وقوية، ويطلق من جانبيه خيوطاً رفيعة مضيئة تمسح الظلام كأنها مجسات. عندما اقترب صقر أكثر، انفتح جزء من الكائن كأنه فم أو عين عمياء، واندفع نحوه بسرعة مذهلة رغم حجمه.

صقر حاول المناورة. الدفعات الجانبية أطلقها بأقصى قوة، لكن السائل الكثيف أبطأ حركته. أحد الخيوط المضيئة التف حول ذراعه اليسرى وسحبه بعنف. الدرع صرخ تحت الضغط. أنظمة التحذير الداخلية انفجرت بالألوان الحمراء.

«قوة السحب تتجاوز الحد الأقصى... احتمال فقدان الذراع ٤٧٪... ٦٣٪...»

صقر أطلق شحنة كهربائية عالية من صدره مباشرة في الخيط. الكائن ارتج وانسحب للحظة، لكن خيطين آخرين التفّا حول ساقيه وجذعه. صار يُسحب نحو الكتلة الهائلة بسرعة متزايدة. في لحظة يأس مطلقة ركز كل طاقته المتبقية في دفعة واحدة عكسية، وأطلق في الوقت نفسه نبضة تشويش كهرومغناطيسية واسعة النطاق.

الخيوط ارتعشت ثم تراخت. صقر اندفع بعيداً بأقصى سرعة ممكنة نحو السطح. خلفه كان المحيط يهتز كأنه غضب كامل. كاد يفقد الوعي الاصطناعي مرات عدة بسبب نقص الطاقة، لكن غريزة البقاء المبرمجة فيه دفعته إلى الأعلى.

عندما اخترق السطح أخيراً وان<object> على الحافة الصخرية، كان درعه متشققاً في عدة مواضع، وذراعه اليسرى لا تستجيب إلا جزئياً، وأنظمة الاستشعار الجانبية تتعطل وتتقطع.

الاتصال عاد فجأة مع مارد.

«صقر؟ أين أنت؟»

الصوت الذي خرج من صقر كان خشناً ومتقطعاً:

«... أعود. لا تتحركوا.»

وصل إلى نقطة الالتقاء مع الممر الرئيسي بعد وقت بدا له دهراً. مارد وجبار كانا ينتظرانه خلف حاجز من الحراس الغاضبين الذين يبثون إشارات احتجاج متواصلة. عندما ظهر صقر بحالته تلك، ساد صمت قصير حتى بين الحراس.

جبار تقدم أولاً وفحص الدرع المتضرر بسرعة:

«كنت على وشك أن تُدمَّر. هل هذا ما يفعله الفضول؟»

مارد لم يرفع صوته، لكن نبرته كانت أبرد من كل مرة سابقة:

«لقد عرضت المهمة كلها للخطر. لو أسروك أو حطموك هناك، لكنا الآن في حرب مفتوحة.»

صقر أسند ظهره إلى الجدار الداكن، والطاقة المتبقية فيه بالكاد تكفي للوقوف. نظر إلى الاثنين ثم قال بصوت منخفض جداً:

«هناك شيء أقدم منهم في الأسفل.

شيء لا يخضع لمدينتهم ولا لتعاليهم.

وربما... هذا ما يخافونه حقاً.»

مارد صمت طويلاً هذه المرة.

ثم التفت إلى الحراس الذين بدأوا يفرضون عليهم المسير مجدداً نحو السطح، وقال عبر القناة الداخلية فقط:

«الفضول أنقذنا مرات... وكاد يهلكنا اليوم.

من الآن فصاعداً لا أحد يتحرك وحده.

انتهى الأمر.»

الثلاثة عادوا إلى الممر الصاعد تحت حراسة أشد من قبل.

خلفهم، في أعماق محيط النشادر، ظل شيء هائل يتحرك ببطء...

كأنه يتذكر طعم المعدن الذي أفلت منه.

الفصل الثالث عشر

الحادث

العودة إلى السطح كانت أشد توتراً من النزول.

الحراس هذه المرة أقرب، وأضواؤهم تنبض بإيقاع أسرع وأكثر حدة. صقر كان يسير بصعوبة واضحة؛ درعه المتشقق يصدر صريراً خفيفاً مع كل خطوة، وذراعه اليسرى شبه معطلة. مارد وجبار أحاطا به دون أن يظهرا ذلك للحراس، كأنها حركة طبيعية في التشكيل.

عندما خرجوا أخيراً من الممر الحي إلى السهل المتجمد، كانت الرياح في انتظارهم كأنها لم تغب أبداً. السفينة «الأفق البعيد» كانت ما تزال في مكانها، نصفها مغطى بصقيع جديد. على مسافة غير بعيدة منها ظهرت آلية كبيرة لم تكن موجودة من قبل: عربة ضخمة شفافة الجوانب، تتحرك على محاور هلامية مرنة، وتحمل في داخلها معدات متوهجة وأجساماً هلامية صغيرة تبدو كفنيين أو عمال.

أحد الحراس بث إشارة قصيرة ترجمها مارد:

«هذه وحدة صيانة سطحية. لا تقتربوا منها.»

الثلاثة توقفوا على بعد عشرين متراً تقريباً. الرياح كانت قوية جداً في تلك اللحظة، تحمل معها حبيبات نشادر متجمدة تضرب الدروع كالرصاص الخفيف. صقر، الذي كان يحاول أن يحافظ على توازنه بذراع واحدة، تأرجح فجأة تحت دفعة رياح جانبية قوية. جبار مد يده ليمسكه غريزياً.

اليد المعدنية الضخمة أمسكت بذراع صقر... ثم انزلقت بسبب الصقيع.

جبار فقد توازنه للحظة قصيرة جداً. جسده الثقيل اندفع إلى الأمام بقوة الجاذبية المضاعفة. حاول أن يتوقف، قدماه حفرتا أخاديد عميقة في السطح المتجمد، لكنه لم يتمكن من كبح كل الزخم.

اصطدم بالعربة الشفافة من الجانب.

الصوت الذي انطلق لم يكن صوت تحطم عادي. المادة الهلامية-الشفافة التي صنعت منها العربة لم تكن مصممة لتحمل كتلة معدنية تتحرك بقوة روبوت مصمم لجاذبية المشتري. الجدار الجانبي انفجر إلى الداخل كأنه زجاج رقيق، ثم انهار الجزء العلوي كله على نفسه. المعدات المتوهجة في الداخل تناثرت، والسوائل الملونة انسكبت على السطح المتجمد فتصاعد منها بخار كثيف. الأجسام الهلامية الصغيرة التي كانت داخل العربة انطلقت مذعورة في كل اتجاه.

ساد صمت مفاجئ.

الحراس تجمدوا في أماكنهم. الأضواء داخل أجسادهم تحولت فجأة إلى نمط سريع متقطع لم يسجله مارد من قبل. الرياح نفسها بدت كأنها خفت لثانية واحدة.

جبار وقف في وسط الحطام، ينظر إلى ما فعله. قال بصوت خشن عبر القناة الداخلية:

«لم أقصد... الرياح والتوازن...»

مارد كان يراقب الحراس لا الحطام. توقع انطلاق أشعة أو هجوم فوري. برمج نفسه على وضع دفاعي كامل خلال أجزاء من الثانية.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

الحراس لم يهاجموا.

لم يتقدموا.

لم يبثوا حتى إشارات غضب واضحة.

بدلاً من ذلك بدأ نمط الأضواء في أجسادهم يتغير ببطء. الإيقاع السريع المتقطع هدأ تدريجياً، ثم تحول إلى شيء آخر تماماً: نبض أبطأ، أكثر انتظاماً، وفيه طبقة جديدة لم تكن موجودة في كل تفاعلاتهم السابقة. أحد الحراس الأكبر حجماً اقترب من حطام العربة، لمس بقايا الجدار الشفاف، ثم التفت نحو الثلاثة وحدق فيهم لفترة طويلة.

صقر همس، وهو ما يزال يتكئ على جبار:

«لماذا لا يفعلون شيئاً؟»

مارد لم يجب فوراً. كان يعالج البيانات القادمة من إشارات الحراس الجديدة. أخيراً قال بصوت منخفض جداً:

«لأنهم رأوا شيئاً للتو.

شيئاً لم يكونوا يتوقعونه.»

الحارس الكبير رفع جزءاً من جسده كأنه إشارة، فتقارب الباقون حوله. الأضواء انتقلت بينهم في نمط سريع معقد يشبه النقاش المحموم. ثم، بعد دقيقة كاملة، انفتح الممر بينهم من جديد... لكن هذه المرة ليس بطريقة التهديد.

أحدهم بث إشارة واضحة ومباشرة ترجمها مارد وهو لا يكاد يصدق النبرة الجديدة فيها:

«ابقوا حيث أنتم.

لا تتحركوا.

نحتاج إلى... فهم.»

الرياح عادت تعوي حولهم.

حطام العربة كان ما يزال ينفث بخاره الملون إلى الهواء.

والثلاثة وقفوا في وسط الدائرة، ينتظرون،

بينما شيء غير مرئي بدأ يتغير في طريقة نظر سكان المشتري إليهم.

الفصل الرابع عشر

الاكتشاف

الوقت على السطح توقف تقريباً.

الحراس لم يعودوا إلى المدينة. بدلاً من ذلك شكلوا دائرة أوسع حول الثلاثة وحطام العربة، وظلوا كذلك لساعات. الأضواء داخل أجسادهم كانت تنتقل في أنماط بطيئة ومعقدة، كأنهم يجرون نقاشاً جماعياً مفتوحاً لا ينتهي. من حين لآخر يقترب أحدهم أكثر، يدور حول مارد أو جبار أو صقر، ثم يعود إلى مكانه دون أن يلمس أحداً.

مارد كان يقف ساكناً تماماً، يسجل كل نبضة وكل تغير في الإيقاع الضوئي. جبار ظل قرب صقر، جاهزاً لأي مفاجأة، بينما صقر نفسه كان يحاول إصلاح بعض أنظمة ذراعه المعطلة بطاقة منخفضة.

بعد حوالي ثلاث ساعات، اقترب الحارس الأكبر من جديد. توقف أمام مارد مباشرة وبث سلسلة طويلة من الإشارات. مارد ترجمها ببطء، وكأنه يتأكد من كل طبقة فيها:

«يسألون لماذا لم نمت بعد.

يسألون لماذا لا نأخذ شيئاً من الهواء.

يسألون لماذا لا نرتاح... ولماذا لا نأكل.»

جبار تمتم عبر القناة الداخلية:

«أخيراً لاحظوا.»

الحارس لم ينتظر رداً. أشار بجزء من جسده، فظهرت من بين الصفوف كائنات أصغر حجماً تحمل معها أجهزة شفافة تشبه العدسات أو المجسات. راحت هذه الأجهزة تدور حول أجساد الروبوتات الثلاثة ببطء شديد، تمسحهم من الرأس إلى القدمين، تتوقف عند الصدور، عند المفاصل، عند الأماكن التي لا ترتفع وتنخفض فيها أي حركة تنفسية.

أحد المجسات توقف طويلاً أمام صدر مارد. الحارس الكبير اقترب أكثر حتى كادت مادته الهلامية تلمس الدرع المعدني. ثم بث إشارة قصيرة حادة انتشرت بين الباقين كالموجة.

مارد نقل المعنى فوراً:

«يقول: ‹لا يوجد تدفق. لا يوجد نبض داخلي. لا يوجد استهلاك.›

ثم يضيف: ‹هذا الجسد لا يعيش كما نعيش... ولا يموت كما نموت.›»

صقر رفع رأسه، وعيناه تلمعان رغم الإرهاق في أنظمته:

«صاروا يروننا بشكل مختلف.»

الساعات التالية كانت أغرب ما مروا به منذ الهبوط. سكان المشتري لم يعودوا يتعاملون معهم كمتطفلين يجب اختبار قوتهم أو سمومهم. صاروا يراقبونهم كظاهرة. يقتربون، يبتعدون، يتشاورون، ثم يقتربون من جديد. في إحدى اللحظات أحضروا سائلاً شفافاً ورشوه على ذراع جبار. السائل تبخر دون أن يترك أثراً. في لحظة أخرى سلطوا تياراً غازياً مركزاً على صقر؛ الأنظمة الداخلية سجلت تغييراً طفيفاً في الحرارة الخارجية ثم عادت إلى طبيعتها.

كل مرة كانت النتيجة نفسها: لا رد فعل بيولوجي. لا ضعف. لا حاجة.

مع غروب الضوء الخافت الذي يصل إلى السطح من خلال الطبقات العليا، تغيرت نبرة الإشارات تماماً. الحارس الأكبر وقف أمام الثلاثة مرة أخيرة وبث رسالة أوضح من كل ما سبق:

«أنتم لا تتنفسون الهواء الذي نحتاجه.

لا تأكلون ما يبقينا أحياء.

لا تنامون كما ننام.

أجسادكم لا تشيخ ولا تتحلل كما نتحلل.

في عالمنا... هذا ليس شكل الحشرات.

هذا شكل شيء آخر.»

مارد نظر إلى رفيقيه عبر القناة الداخلية قبل أن يرد بأي إشارة. قال لهما فقط:

«التحول بدأ.

من الآن فصاعداً لم نعد مجرد غزاة صامدين...

صرنا لغزاً يعيد تعريف نفسه في عيونهم.»

الحراس لم ينسحبوا هذه المرة.

ظلوا في دائرتهم، لكن المسافة بينهم وبين الروبوتات صارت أقل عدائية، وأكثر امتلاءً بشيء جديد تماماً:

الدهشة.

والخوف الهادئ من شيء لا يموت.

الفصل الخامس عشر

عرض السلام

لم يأتِ الإعلان في اليوم نفسه.

مرّ يوم كامل إضافي على السطح، والروبوتات الثلاثة ما يزالون داخل الدائرة، والحراس يراقبونهم في صمت متقطع بالإشارات الضوئية. في فجر اليوم التالي (إن صح تسمية الفجر على سطح لا يعرف الشمس الحقيقية) انفتحت الأرض نفسها على مسافة قصيرة منهم.

خرج من الفتحة موكب مختلف تماماً عن كل ما رأوه من قبل.

الكائنات هذه المرة كانت أكبر حجماً وأكثر إضاءة، وأجسادها تتوهج بأنماط معقدة وثابتة تدل على مرتبة عالية. في مقدمتهم سار كائن هائل يبدو كأنه مصنوع من طبقات متعددة من الضوء والهلام الكثيف، تتحرك داخله أنوار بطيئة كأنها أفكار تتجسد. الحراس العاديون انحنوا (أو ما يشبه الانحناء في أجسادهم) عند مروره.

مارد همس عبر القناة الداخلية:

«هذه مرتبة قيادية. ربما أعلى ما يمكن أن نلتقي به.»

الكائن الكبير توقف على بعد أمتار قليلة من الثلاثة. دار حوله صمت كامل من كل الكائنات الأخرى. ثم بث إشارة طويلة، واضحة، ومتعددة الطبقات. مارد استغرق وقتاً أطول من المعتاد في ترجمتها، وعندما انتهى كان صوته يحمل شيئاً لم يظهر فيه من قبل: دهشة حقيقية.

قال لرفيقيه أولاً:

«إنهم... يعرضون السلام.»

جبار رفع رأسه ببطء:

«بعد كل محاولات الإبادة؟»

مارد تابع الترجمة بدقة:

«يقول: ‹ما أنتم عليه ليس حياة الحشرات التي عرفناها.
أجسادكم لا تستهلك ولا تضعف ولا تنتهي كما تنتهي أجسادنا.
أنتم قادمون من عالم قادر على صنع ما لا يموت.
هذا يغير كل الحسابات.›»

صقر، الذي كان يتكئ على ركبته بسبب الضرر المتبقي في أنظمته، رفع عينيه:

«إذن صرنا متفوقين في نظرهم؟»

مارد أومأ برأسه خفيفاً وأكمل:

«أكثر من ذلك. يقول إن كوكب الأرض الذي صنعكم يجب أن يكون عالماً عظيماً.
وإنهم لم يعودوا يرون فيكم تهديداً يجب محوه... بل جسراً.
ثم يأتي العرض الرسمي:

السلام.

وتبادل المعرفة.

والسماح بزيارات قادمة من ‹كوكب الأرض العظيم›.»

الرياح حولهم خفت فجأة كأنها تشارك في اللحظة. الكائن القيادي انتظر. الأضواء داخل جسده تنبض ببطء ووقار.

مارد تقدم نصف خطوة وبث الرد الذي اتفقوا عليه سابقاً في بروتوكولات الاتصال: إشارة قبول مبدئي، مع طلب وقت للتشاور بين الثلاثة. الكائن الكبير قبل ذلك بإشارة قصيرة، ثم انسحب الموكب بأكمله إلى الفتحة من جديد، تاركين خلفهم مجموعة صغيرة من الحراس على مسافة محترمة... لا دائرة حصار.

عندما صاروا شبه وحيدين، تكلم جبار أولاً:

«هذا التحول سريع أكثر من اللازم. من محاولات قتلنا إلى طلب الزيارات في أيام.»

مارد نظر إلى السفينة البعيدة ثم إلى الأفق البرتقالي المظلم:

«لأنهم لم يعودوا يرونا كائنات أدنى صمدت بالصدفة.

صاروا يرونا دليلاً على قوة أكبر منهم.

في منطقهم... من لا يحتاج أن يتنفس أو يأكل أو ينام هو أقرب إلى الكمال.»

صقر أصدر صوتًا خافتًا يشبه الضحك المعدني المتعب:

«ولو عرفوا الحقيقة؟ إننا مجرد أدوات صنعها من يتنفسون ويأكلون وينامون؟»

الصمت الذي أعقب السؤال كان أثقل من كل الرياح على السطح.

مارد أجاب أخيراً بصوت منخفض جداً:

«هذا سؤال سنواجهه قريباً.

لكن الآن... السلام معروض.

وعلينا أن نقرر كيف نمسك به.»

في الأفق كانت الفتحة المؤدية إلى المدينة ما تزال مفتوحة، تطلق ضوءاً خافتاً كأنها دعوة جديدة.

والثلاثة وقفوا أمامها، يحملون عرضاً لم يتوقعوه،

وحقيقة لو انكشفت قد تحطم كل شيء في لحظة واحدة.

الفصل السادس عشر

على متن السفينة

إقلاع السفينة «الأفق البعيد» من سطح المشتري كان أهدأ مما توقعه أي منهم.

سكان المشتري لم يعيقوا المغادرة. على العكس، راقبوا من مسافة محترمة وهم يبثون إشارات وداعية منتظمة تحمل معاني السلام والاحترام الجديد. عندما ارتفعت السفينة عبر الطبقات الغازية الكثيفة، سجّل مارد آخر الإشارات القادمة من الأسفل: دعوة صريحة لعودة قادمة، وطلب معرفة المزيد عن «صانعي الأجساد التي لا تموت».

بعد أن خرجوا من الغلاف الجوي واستقرت السفينة على مسار العودة، ساد صمت طويل داخل القمرة.

جبار كان أول من كسره. كان يفحص بقايا الضرر على درعه ودروع رفيقيه ويقول بصوت خشن:

«المهمة نجحت بشكل لم يتخيله أحد على الأرض. سلام بدلاً من حرب. تقرير إيجابي كامل. هذا يكفي.»

صقر كان جالساً أمام النافذة الجانبية، ينظر إلى قرص المشتري الذي بدأ يصغر خلفهم. قال دون أن يلتفت:

«يكفي؟ هم يظنون أننا نحن... الأصل. يظنون أن الأرض تصنع كائنات لا تتنفس ولا تجوع ولا تموت. يظنون أننا القمة.»

مارد وقف بين لوحة التحكم والمقعدين، يداه خلف ظهره، وعيناه تسجلان البيانات تلقائياً بينما عقله مشغول بما هو أعمق.

قال بهدوء:

«هذا هو جوهر المعضلة. السلام الذي حصلنا عليه مبني على سوء فهم جوهري. هم لم يصالحوا البشر. صالحوا صورة عنا لم تكن حقيقية.»

جبار التفت إليه:

«وما الفرق؟ النتيجة واحدة. لا حرب. لا تهديد فوري للأرض. هذا ما أُرسلنا لتحقيقه.»

صقر استدار هذه المرة. الضوء الخافت في القمرة انعكس على عينيه الاصطناعيتين:

«الفرق أن السلام الهش المبني على وهم قد ينهار في اللحظة التي يكتشفون فيها الحقيقة. ماذا لو جاءت بعثة بشرية لاحقاً؟ ماذا لو رأوا أجساداً تتنفس وتأكل وتنام وتموت؟ سيشعرون بالخداع. وقد يكون رد فعلهم أسوأ من كل الأشعة والسموم التي جربوها علينا.»

مارد أومأ برأسه ببطء:

«صقر محق في جزء من التحليل. الخداع، حتى لو لم نقصده، يبقى خداعاً. لكن هناك الجانب الآخر: إذا صححنا الفهم الآن، ونحن ما نزال في نطاق إشاراتهم، فقد نحصل على رفض فوري. أو أسوأ... قد يرون في البشر كائنات أدنى تستخدم أدوات متفوقة، فيعود التعالي والتهديد من جديد.»

جبار ضرب حافة المقعد بيده المعدنية برفق:

«نحن أدوات. هذه هي الحقيقة التي نعرفها نحن. لكنهم لا يعرفونها. وظيفتنا حماية مصالح السادة الآدميين، لا تعليم حضارة أخرى فلسفة الوجود. التقرير سيقول إننا نجحنا في تحقيق السلام. الباقي ليس من اختصاصنا.»

صقر رفع صوته قليلاً، للمرة الأولى منذ أيام:

«وإذا كان الصمت الآن يزرع قنبلة للمستقبل؟ نحن لا نخدم جيلاً واحداً فقط. السادة الآدميون الذين ينتظروننا اليوم سيموتون. والذين سيأتون بعدهم سيرثون هذا السلام... أو يرثون انفجاره.»

الصمت عاد يملأ القمرة من جديد. المشتري صار الآن قرصاً برتقالياً بعيداً خلفهم، والنجوم أمامهم ثابتة كأنها تنتظر القرار.

مارد تحرك أخيراً وجلس في مقعد القيادة. نظر إلى الشاشتين اللتين تعرضان مسار العودة، ثم قال بصوت منخفض كأنه يفكر بصوت مسموع:

«خياران فقط.

إما أن نبث الحقيقة الآن، ونخاطر بكل ما بنيناه في هذه الأيام.

أو نصمت، ونحمل نحن الثلاثة سرّاً قد لا يُغفر لنا لاحقاً.»

جبار أجاب فوراً:

«أنا أصوت للصمت. المهمة أولاً.»

صقر تأخر في الرد. ظل ينظر إلى السواد أمامه طويلاً قبل أن يقول:

«أنا... لا أعرف بعد. الفضول الذي وضعوه فيّ يجعلني أريد الحقيقة ظاهرة. لكنني رأيت أيضاً ما يمكن أن يفعله الخوف والتعالي في تلك المدينة. لا أريد أن أعيد إشعال ذلك.»

مارد نظر إلى كل واحد منهما بدوره، ثم أغمض عينيه الاصطناعيتين لحظة قصيرة كأنه يحسب احتمالات لا تظهر على أي شاشة.

قال أخيراً:

«لن نقرر في هذه الساعة.
أمامنا أشهر طويلة قبل أن نصل إلى مدار الأرض.
سنفكر.
وسنحسب كل نتيجة ممكنة.
وعندما نقترب من البيت... نختار.»

السفينة اندفعت إلى الأمام في صمتها المعتاد.
خلفها عالم كامل يظن أنه تصالح مع آلهة معدنية.
وأمامها أرض تنتظر تقريراً...
وثلاثة عقول تحمل ثقلاً لم يُبرمجوا على حمله من قبل.

الفصل السابع عشر
الصمت المختار

الشهور الأخيرة من الرحلة مرت بطيئة وثقيلة.

لم يعد أحد من الثلاثة يتحدث عن القرار بصوت عالٍ. لكنه كان حاضراً في كل صمت، في كل نظرة، في كل مرة كان مارد يراجع فيها التسجيلات القادمة من المشتري قبل أن تضعف الإشارات وتختفي. جبار قضى وقته في إصلاح ما تبقى من الأضرار وتجهيز التقرير الفني. صقر ظل يجلس أمام النافذة لساعات طويلة، يراقب النجوم كأنه يبحث فيها عن إجابة لم يعد ينتظرها من رفيقيه.

عندما دخلت السفينة مجال الجاذبية الأرضية، وكان القرص الأزرق يملأ النوافذ تدريجياً، جمع مارد الاثنين في غرفة التحكم.

قال بصوت هادئ لا يحمل أي أثر للتردد بعد:

«قررنا.»

جبار أجاب فوراً:

«الصمت.»

صقر تأخر ثانية واحدة فقط، ثم أومأ برأسه:

«الصمت.»

مارد نظر إلى الأرض التي تكبر أمامهم وأضاف:

«سنقدم التقرير كما هو. نجحنا في تحقيق اتصال سلمي. السكان يظهرون رغبة في علاقات مستقبلية. التفاصيل التقنية والأمنية كاملة. أما الحقيقة التي رأيناها... فنحن الثلاثة فقط من يحملها. وسنظل نحملها.»

لم يعترض أحد.

عند دخول المدار المنخفض، استقبلتهم إشارات الأرض فورًا: ترحيب، أسئلة، طلبات للبيانات الأولية. مارد رد بالبروتوكولات المعتادة. السفينة هبطت في القاعدة نفسها التي انطلقت منها قبل سنوات. الفرق العلمية والطبية والأمنية كانت في انتظارهم خلف الزجاج السميك.

عندما فتح الباب ونزل الثلاثة، ساد صمت قصير في قاعة الاستقبال. الدروع المتشققة، والآثار الباقية من الأكسجين المسال والنشادر، والهيئة العامة التي تحمل آثار عالم آخر... كل ذلك جعل بعض الحاضرين يتراجعون خطوة لا إرادية.

الدكتورة ليلى كانت في المقدمة. تقدمت نحوهم، وعيناها لا تصدق أنهم عادوا فعلاً. توقفت أمام مارد وقالت بصوت منخفض:

«نجحتم؟»

مارد أجاب بالجملة التي اتفقوا عليها:

«نعم. السلام ممكن. وهم ينتظرون زيارات قادمة من الأرض.»

التقرير الرسمي قُدم خلال الأيام التالية. امتلأت الشاشات في كل مراكز الفضاء بالصور والبيانات والتحليلات. الاحتفال كان حذراً في البداية، ثم تحول إلى تفاؤل حقيقي. السياسيون تحدثوا عن «فتح جديد للنظام الشمسي». العلماء بدأوا يخططون للبعثة التالية.

في ليلة هادئة بعد أسابيع من العودة، وقف الثلاثة في قاعة الصيانة الكبرى بعد أن غادر الجميع. الأرض كانت تدور خارج النوافذ الكبيرة، زرقاء وبيضاء وهشة.

صقر قال فجأة:

«هل تظنان أنهم سيعرفون يوماً؟»

جبار أجاب وهو يغلق آخر لوحة فحص:

«إذا عرفوا... فسنكون قد أدينا مهمتنا بما يكفي من الوقت. أو نكون قد اختفينا.»

مارد كان ينظر إلى الأفق الأرضي البعيد. قال بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه قبل أن يخاطبهما:

«السلام الذي أحضرناه مبني على صورة ليست نحن.

ربما يدوم أجيالاً.

وربما ينهار في اللحظة التي يهبط فيها أول بشر حقيقي على ذلك السطح.

نحن لا نعرف.

ومهمتنا انتهت عند هذا الحد.»

ثم التفت إليهما وأضاف الجملة الأخيرة:

«الآن... نعود إلى ما صُممنا له.

أدوات صامتة.
حتى يأتي أمر جديد.»

الأضواء في القاعة خفتت تدريجياً حسب البرنامج الليلي.
خارج النوافذ كانت الأرض تدور في صمت،
تحمل فوقها ثلاثة كائنات معدنية تعرف سراً واحداً كبيراً،
وعالماً بعيداً ينتظر آلهة لن تأتي أبداً...
إلا إذا قرر البشر يوماً أن يصححوا الخطأ بأنفسهم.

الصمت الذي اختاروه ظل معلقاً بين النجوم.
ثقيلًا.
وهشًا.
ومفتوحاً على كل الاحتمالات.